أوجه الإختلاف والتشابه بين الصحافة والأدب

2016-07-04جودت هوشيار

إستهلال:

لا أحد يعرف على وجه الدقة، هل الأدب أقدم من الصحافة، أم الصحافة أقدم من الأدب؟. بعض المؤرخين الغربيين يطلقون على الصحافة اسم (ثاني أقدم مهنة في التأريخ)، ويجزمون ان مهنة (بيع الهوى)، هي أول وأقدم مهنة عرفها الجنس البشري. ولكن لا توجد شواهد أثرية أو تأريخية تؤكد هذه المزاعم، في حين توجد أدلة قاطعة على ممارسة الإنسان البدائي –ذكراً كان أم أنثى- لحرف ومهن حياتية وعملية، ضرورية لاستمرار الحياة، ولم يكن بينها، هاتان المهنتان.

الأدب قديم قدم الإنسان، ويحدثنا علماء الآثار والأنثربولوجيا عن نصوص أدبية يعود تأريخها الى اربعة آلاف سنة قبل الميلاد، مثل التراتيل الدينية والأساطير والملاحم، ومن ابرزها ملحمة جلجامش، في بلاد الرافدين. وكتاب الموتى، وأناشيد الرعي والاستسقاء والعبادة والغزل في مصر الفرعونية. والذاكرة الإنسانية حافلة بالأعمال الأدبية الخالدة مثل " الألياذة " و" الأوديسا " لهوميروس، ناهيك عن قصص ألف ليلة وليلة، وكتاب كليلة ودمنة. كل هذه النتاجات الأدبية كتبت قبل أن يظهر للوجود أبسط شكل من أشكال الصحافة البدائية.

يقال بأن أول (صحيفة) في العالم صدرت في روما سنة 85 قبل الميلاد، باسم (الأعمال الرسمية) أسسها الأمبراطور يوليوس، الذي أمر كبار موظفي دولته أن يدونوا جميع أعمالهم على لوح يعلق في الميادين عامة، ثم صدرت (صحيفة) أخرى كانت اكثر انتشارا لأنها كانت تنشر أخبار الخاصة والعامة.

الصحافة في بداية ظهورها لم تكن منتظمة الصدور، ولم تنشأ أول صحيفة دورية، الا في سنة 1631 في فرنسا. اما في العالم العربي، فقد نشأت الصحافة على أيدي الأدباء والنقاد الرواد. ويكفي إلقاء نظرة على تأريخ الصحافة العربية، وتراجم روادها الأوائل، في كل من مصر ولبنان والعراق، وفي

سائر البلدان العربية، لإثبات هذه الحقيقة الموثقة.

الصحافة والأدب نوعان من الإبداع اللفظي. ولكنهما يستخدمان أدوات تعبيرية مختلفة، وأساليب لغوية متباينة، وقد أخذا منذ أواخر الخمسينات من القرن الماضي يقتربان من بعضهما من حيث استخدام التقنيات الكتابية والمادة الخام، ويمكن تلخيص أهم وجوه الاختلاف والتشابه بينهما، في نقاط محددة وواضحة، على النحو التالي:

أوجه الاختلاف:

1- تقوم الصحافة على جمع وتحليل الأخبار والتحقق من مصداقيتها وتقديمها للجمهور وغالبا ما تكون هذه الأخبار متعلقة بمستجدات الأحداث على الساحة الداخلية والخارجية، أو تتناول شتى جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والرياضية وغير ذلك. وأغلب ما يكتبه الصحفي يستند الى وقائع وأحداث حقيقية واناس حقيقيين. الصحفي المحترف هو في خضم الناس والأحداث دائماً، ومثل الجندي في خندق القتال، في حالة استنفار دائم. اما الأديب فأنه يعمل، في عزلة وهدوء، عندما يأتيه الإلهام ويكتب في تأمل وروية في البيت أكثر الأحيان، وان كان بعض كبار الروائيين والشعراء اعتادوا الكتابة في المقاهي أيضاً.

2- الصحفي العامل في الصحافة اليومية أو الإذاعة أو التلفزيون، لديه مواعيد محددة لإنجاز ما كلف به من أعمال. وكلما اسرع في عمله كان ذلك افضل. فهناك المنافسة والسبق الصحفي، وليس لديه الوقت الكافي لإعادة كتابة المادة الصحفية أكثر من مرة. أما الأديب فأنه يصرف الجزء الأكبر من وقته ليس في كتابة النص الفني فحسب، بل في صقله على هواه، فهو يقدم، ويؤخر، ويضيف ويمحو، ويغيّر هذه الكلمة أو الجملة أو تلك، وفي معاودة النظر فيه اكثر من مرة، فهذا هو عمله الأساسي. من يصدق أن عبقرياً مثل ليف تولستوي كان يعيد كتابة فصول رواياته الطويلة مرات عديدة، وكذلك هيمنجواي الذي أعاد كتابة بعض فصول رواياته عشرات المرات، وهي ظاهرة شائعة لدى معظم الأدباء الروائيين. أما في الشعر، وكان الشاعر الرائد والمبدع بدر شاكر السيّاب يقول، ان مهمة الشاعر الرئيسية هي الحذف والاختصار. واذا كان المقال الصحفي يمكن كتابته –اذا لزم الأمر– خلال بضع ساعات، فان الرواية قد تستغرق كتابتها عدة سنوات. الصحفي عندما يتناول الصحيفة في

الصباح فأنه يرى ثمرة عمله بالأمس، اما الكاتب فأنه ينتظر احياناً سنوات لإصدار كتابه الجديد.

3- يبدو لي ان الفرق الجوهري بين الصحفي والأديب. هو درجة الحرية الشخصية التي يتمتع بها كل منهما. الصحفي لا يمكنه أن يكتب حسب هواه، بل يلتزم بالسياسة التحريرية للصحيفة التي يعمل بها، ان لم يكن هو شخصيا مالك الصحيفة. أما الأديب فلا رقيب عليه سوى عقله وضميره وذوقه الفني.

4 - الشيء الرئيسي في الصحافة هو المحتوى الموثوق، ولكنه يتقادم بسرعة. فعمر المادة الصحفية هو المسافة الزمنية التي تفصل بين صدور عددين من الجريدة أو المجلة. أما الأدب فلا يتقيّد بالحاضر، بل لا يتقيّد بزمان ولا مكان، وقيمته الحقيقية تكمن في مستواه الفكري والفني. وما يبدعه الأديب يظل حياً ومقروءا لعشرات وربما لمئات السنين.

5- الصحافة، بمفهومها الحديث حرفة أو مهنة لها اصولها وقواعدها ويمكن تعلمها، في كليات ومعاهد الصحافة أو خلال العمل الصحفي. أما الابداع الأدبي، فإنه موهبة فطرية، يتمتع بها قلة نادرة من الناس. بذرة الموهبة يمكن تنميها بالمرانة ومعاودة النظر، ولكن من يفتقر الى هذه البذرة لا يمكنه خلق نتاج إبداعي حقيقي.

6- لغة الصحافة واضحة وبسيطة ومرنة تنبض بالحياة، والصحفي يحاول اجتناب الغموض ويتوخى مرضاة القاريء، ولهذا فان المواد الصحفية في متناول الجمهور العام. أما الأدب فأنه يمتاز بلغته العالية وأسلوبه الرفيع، ويوجه في المقام الأول للنخب الثقافية التي تتذوق الأدب وتنشده، وتستمتع به. بعض الكتاب عندما يكتبون مقالات صحفية بأسلوبهم المعهود في الأدب، لا يدركون ان القاريء ليس لديه وقت لاستخراج الحقائق والمعلومات من عباراتهم الإنشائية الملتوية الغامضة.

7- الصحفي في بلادنا يمكن أن يكسب لقمة عيشه من عمله، أما الأديب -الذي ليس لديه مهنة أخرى يعتاش منها- فانه يعاني أشد المعاناة في حياته الخاصة وفي نشر نتاجه الإبداعي – شعراً كان أم نثراً فنياً - وتوزيعه الذي يستنزف الكثير من الوقت والجهد والمال، ويعجز عن تأمين حياة كريمة له ولعائلته اذا كان ما يبدعه فوق مستوى الجمهور ولا يلقي رواجا في السوق..

8- الصحافة أداة فعالة وقوية في التأثير ليس في الرأي العام فقط، بل أيضاً في السلطات الثلاث (الحكومة، والبرلمان، والقضاء). ولهذا يطلق على الصحافة مسمى " السلطة الرابعة ". الأدب لا يمكنه ان يمارس مثل هذا التأثير المباشر والسريع.

أوجه التشابه:

1 - الصحافة مدرسة نافعة للأديب، يستفيد من خبرة العمل فيها في ادامة وتعزيز اتصاله بالناس وتوسيع آفاق رؤيته للحياة والعالم، مما يشكل معيناً لا ينضب لتجربته الأدبية. وقد عمل العديد من كبار الأدباء في العالم كمراسلين صحفيين لسنوات طويلة. منهم هيمنجواي، الذي اتاح له عمله في ميادين القتال، ان يكون شاهد عيان على مآسي الحرب العالمية الأولى والحرب الأهلية الأسبانية، وانعكس كل ذلك في رواياته وأقاصيصه. كما أن الكثير من الكتاب الكلاسيكيين عملوا في الصحافة ومنهم أنطون تشيخوف، ومارك توين، وريمارك، واورويل الذي ظل طوال حياته يمارس كلا النوعين من الأبداع، وقال عنه النقاد أنه أعظم كاتب مقالات في الصحافة الغربية الى جانب كونه روائيا كبيراً.

2- يقال ان «كل أديب صحفي، وليس كل صحفي بأديب". ولكن هذه المقولة ليست دقيقة. صحيح ان الصحافة قامت على أكتاف الكتاب ولكنها لم تعد كذلك منذ زمن طويل. بل تحولت الى صناعة، في حين أن الشهرة الأدبية للعديد من الأدباء ترجع الى عملهم الصحفي، وقد خدمتهم الصحافة في استكشاف إمكانات التعبير عن أنفسهم وتحسين اسلوبهم وتطوير لغتهم نحو مزيد من المرونة والوضوح

3- العلاقة المتداخلة بين الصحافة والأدب. ليس وليدة اليوم بل قديمة، ويمكن اعتبار العديد من نتاجات الكتاب الكلاسيكيين روايات وثائقية بنيت على وقائع واحداث حقيقية. وقد أخذت هذه العلاقة تتعمق وتتسع منذ الستينات من القرن الفائت، ونجد اليوم ان الكثير من الروايات العالمية مبنية حول أشخاص حقيقيين وأحداث حيّة وواقعية. انهم يكتبون ما حصل في الواقع، لتتخذ نتاجاتهم شكل الوثيقة، وهذا النوع من الأدب يمكن تسميته بالأدب الفني - الوثائقي، أو الأدب غير الخيالي. وبذلك أخذت الحدود بين الصحافة و النثر الفني تتلاشى. وهذا ما أقرت به لجنة نوبل حين

منحت جائز الآداب لعام 2015 الى الكاتبة البيلاروسية سفيتلانا الكسيفيتش، التي تنتمي رواياتها الست الصادرة لحد الآن الى هذا النمط غير الخيالي. وليس من السهل على الناقد الأدبي اليوم، ان يميز بين القصة الخيالية وغير الخيالية، ناهيك عن القاريء العادي.

4- لا ينبغي لنا أن نتساءل بعد اليوم أيهما أهم، وأكثر التصاقاً بالحياة: الصحافة أم الأدب؟ بعد أن أصبحت الفنون الصحفية والسردية متداخلة. الصحافة توظف اللغة الأدبية في المقال والأعمدة والتحقيقات الصحفية، والأدب يستمد مادته مما يحدث على ارض الواقع ويغتني بالفنون الصحفية. ولقد ظهرت في البلدان الغربية في الآونة الأخيرة روايات مستوحاة من الصحافة الإلكترونية وما توفره من معلومات ووسائل تفاعلية، ولم تصل هذه الموجة الينا بعد، كما لم تصل من قبل الرواية غير الخيالية، المتعددة الأصوات رغم مرور ستة عقود على ظهورها في الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا.

.....

* الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبأ المعلوماتية